

الفصل الثاني

بيعة أبي بكر

ذهول المسلمين
بعد وفاة النبي

اختار الله رسوله إلى جواره في الثاني عشر من ربيع الأول عام ١١ للهجرة (الثالث من شهر يونيو سنة ٦٣٢ للميلاد) . وكان صلى الله عليه وسلم صبح ذلك اليوم قد شعر بشيء من العافية من مرضه ، فخرج من بيت عائشة إلى المسجد ، وتحدث إلى المسلمين ، ودعا لأسماء بن زيد بالخير ، وأمره أن يسير لغزو الروم . فلما تطاير إلى الناس أن رسول الله قد مات بعد سويعات من جلوسه بينهم وحديثه إليهم تولاهم الدهول ، وقام عمر بن الخطاب فيهم خطيباً ينفي الخبر ، ويذكر أن رسول الله ما مات ، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ؛ فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات . وانطلق عمر يهدد القائلين بوفاة الرسول ويذكر أنه صلى الله عليه وسلم سيرجع إليهم فيقطع أيديهم وأرجلهم .

موقف أبي بكر
من وفاة النبي

وكان أبو بكر قد ذهب إلى داره بالسُّنْح من ضواحي المدينة بعد أن عاد النبي عليه السلام من المسجد إلى دار عائشة . فلما نما في الناس نبأ وفاته ذهب في أثر الصديق من أباغته إياه ففكر راجعاً ، فبصر بالمسلمين وبعمرو يخطبهم ، فلم يقف بل قصد إلى بيت عائشة حيث ألقى النبي صلى الله عليه وسلم مسجياً في ناحية من البيت ، فكشف عن وجهه وجعل يقبله ويقول : « ما أطيبك حياً وما أطيبك ميتاً ! » ، وخرج إلى الناس فقام فيهم فقال : « أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات . ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » . ثم تلا قوله تعالى : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ . أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ » . فلما سمع عمر هذه الآية خرق إلى الأرض ما تحمله رجلاه ، وأيقن أن رسول الله قد مات . ووجم الناس لما سمعوا ولما رأوا ، وأقاموا في ذهولهم لا يدرون ما يصنعون .

تصوير ناحية
من نفسيته

نقف هنيهة ها هنا لتصور ناحية من نفسية أبي بكر يدل عليها موقفه هذا أبلغ الدلالة . فلو أن رجلا من المسلمين جاز أن يبلغ منه الجزع لوفاة الرسول ما بلغ من عمر ، لكان ذلك الرجل أبا بكر ؛ فهو صفيُّ النبي وخليله ، ومن أثره في كل موقف على نفسه . وهو الذي أجهش بالبكاء لقول رسول الله : « إن عبداً من عباد الله خيرَه الله بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله » . وهو الذي قال حين سمع هذه الكلمة والعبرة تخنقه : « نحن نقديك بأنفسنا وأبنائنا » . لكن جزعه لوفاة الرسول لم يأمله ، إذ أهل عمر . وهو لم يلبث حين أيقن أن الله اختار رسوله إليه . أن يخرج إلى الناس وخطبهم بما قرأت .

قوته النفسية
وبعد نظره
إلى المستقبل

وهذه الكلمات التي ألقاها عليهم ، وهذه الآية التي تلاها من القرآن لإقناعهم ، تدل على قوة في مواجهة الحقائق تنأى بصاحبها عن أن يذمها نبأ فاجع كموت رسول الله . وقد اقترنت هذه القوة النفسية بصفة أخرى زادت بها جلالاً ومهابة ، هي بُعدُ النظر إلى المستقبل . وهاتان الصفتان تثيران إعجاب من رجل كله الرفق والرقّة ، وكاهه التقديس لمحمد والمحبة له أكثر من حبه الحياة وما فيها .

وهذه القوة النفسية البالغة التي كانت سند أبي بكر في هذه الساعة العصبية الرهيبة ، ساعة فجيرة المسلمين لفقد نبي الله ورسوله ، هي التي كانت سنده في الساعات الكثيرة العصبية التي مرّت من بعده به وبالمسلمين ، وهي التي وقّمت المسلمين ووقت الإسلام فتنة لولاها لتعرّضوا لحن لا يعلم إلا الله ما كان يصيبهم ويصيب النشأة الجديدة من جرائها .

لمن عسى أن
ينتقل الأمر من
بعد الرسول

لم يكن عمر والمسلمون الذين أحاطوا به واستراحوا إلى قوله إن النبي لم يمّت ، إلا الذين أذهلهم النبأ عن التفكير فيما وراءه . أما الذين أيقنوا بحقيقة هذا النبأ أول ما عرفوا به ، فلم يشبههم أحزّن عن هذا التفكير . فقد آل أمر المدينة إلى الرسول بعد أن استقر بها ، وبعد أن تمّ لدينه السلطان فيها . فلمن عسى أن ينتقل هذا الأمر من بعده ، وقد امتد سلطان الرسول على سائر العرب بعد أن دانوا بالإسلام ، وبعد أن ارتضى الكتّابيون الدين أقاموا على دينهم أن يدعوا الجزية ؟ ترى أیظل المدينة هذا السلطان ؟ وإن ظل لما فلمن من أهلها يؤول ؟ .

موجدة الأنصار
على المهاجرين

لقد كان الأنصار من أهل المدينة يجدون على المهاجرين أنهم آوهم ونصروهم أول ما جاءوا إليهم ضيوفاً مع الرسول ، فلما اطمأنوا أرادوا أن يستأثروا بالأمر دونهم . كانت هذه روحهم في عهد النبي ، فكان من الطبيعي أن تظهر واضحة حين وفاته ؛ بل لقد ظهرت في حياة الرسول بعد فتح مكة وغزاة حنين والطائف . فقد أجزل محمد العطاء من فيء هذه الغزاة إلى المؤلفة قلوبهم من أهل مكة . فلما رأى الأنصار ذلك تحدث فيه بعضهم إلى بعض وقال قائل منهم : لقي والله رسول الله قومه . فلما بلغت هذه المقالة النبي طلب إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج أن يجمعهم إليه ، فلما اجتمعوا قال لهم : « يا معشر الأنصار ، ما قاله بلغتنى عنكم ، وجدته وجدتموها في أنفسكم ! ألم أتكم ضالاً لا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألّف الله بين قلوبكم ؟ » . وأطرق الأنصار لما سمعوا ، وكان كل جوابهم : « بلى ! الله ورسوله أمنٌ وأفضل » . وسألهم النبي : « ألا تجيبوني يا معشر الأنصار ! » . فظلوا مطرقين ولم يزيدوا على أن قالوا : « بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المنُّ والفضل » .

هنالك تولى محمد الجواب عنهم فقال : « أما والله لو شتم لقلتم فلصدّ قتم ولصدّ قتم : أتيتنا مكذباً فصدّقناك ، ومخذولاً فنصرناك وطريداً فأويناك ، وعائلاً فأسيناك » قال هذه العبارة والتأثر باد عليه ، ثم أردف : « أوجدتم ، يا معشر الأنصار في لُعاة من الدنيا تألّفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ! ! ألا ترضون يا معشر الأنصار ، أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعون برسول الله إلى رحالكم ! ! فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار . ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار » . ولقد بلغ من تأثر الأنصار بهذه العبارة التي صدرت من أعماق قلب النبي ، فقاها وكله العطف والحبة لأولئك الذين بايعوه ونصروه وأعزّوه أن بكوا وقالوا : « رضينا برسول الله قسماً وحظاً » .

الأنصار حين
فتح مكة

ولم يكن فيء حنينٍ وعطاء المؤلفة قلوبهم أول ما أثار المخاوف في نفوس الأنصار ، بل ثارت مخاوفهم قبل ذلك وعلى أثر فتح مكة ، حين رأوا النبي

يقوم على الصفا ويدعو ، وحين رأوه يحطم الأصنام ويتم في يوم واحد ما دعا إليه منذ عشرين سنة . فقد خيّل إليهم أنه تارك المدينة فعائد إلى وطنه الأول . وقال بعضهم لبعض : « أترون رسول الله إذ فتح الله عليه أرضه وبلده لمقيم بها ؟ » . فلما اتصل بمحمد نبأ مخالفتهم قال : « معاذ الله . الحيا محياكم ، والممات مماتكم » .

طبعيٌ وذلك كان شعور الأنصار أن يسرعوا إلى التفكير في أمر مدينتهم أول ما عرفوا أن النبي مات . تُرى أیظل أمر هذه المدينة وأمر العرب إلى المهاجرين الذين أقاموا ضعافاً بمكة لا مأوى لهم ولا نصير حتى أعزتهم المدينة ، أم يكون الأمر لأهل هذه المدينة الذين قال فيهم الرسول إنه أتاهم مكذباً فصدّ قوه ، ومخذولاً فنصروه ، وطريداً فأووه ، وعائلاً فأسوّه ؟ تحدث بعض الأنصار إلى بعض في هذا ، وتداعوا إلى سقيفة بني ساعدة . وكان سعد بن عبادة مريضاً في داره فأخرجوه إليهم ليكون صاحب الرأي فيهم . وأصغى سعد إلى حديثهم ، ثم قال لابنه أو لبعض بني عمه : « إني لا أقدر لشكواي أن أسمع القوم كلهم كلامي ، ولكن تلقّ مني قولي فأسمعهموه » ، ثم جعل يتكلم فينقل الرجل إلى الحاضرين كلامه . قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « يا معشر الأنصار ، إن لكم سابقة في الدين ، وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب . إن محمداً عليه السلام لثب بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن ، وخلع الأنداد والأوثان ، فما آمن به من قومه إلا رجال قليل ؛ وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله ولا أن يعزّوا دينه ، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيماً عُمّوا به . فلما أراد لكم ربكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة وخصكم بالنعمة ، فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله ، والمنع له ولأصحابه ، والإعزاز له ولدينه ، والجهاد لأعدائه ، فكنتم أشد الناس على عدوة منكم ، وأثقله على عدوة من غيركم ، حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرهاً ، وأعطى البعيد المقادة صاغراً داخراً ، وحتى أثنى الله عز وجل لرسوله بكم الأرض ، ودانت بأسيا فكم له العرب . وتوفاه الله وهو عنكم راضٍ ، وبكم قرير عين ؛ فاستبدوا بهذا الأمر دون الناس ، فإنه لكم دون الناس » .

الأنصار في
سقيفة بني
ساعدة

خطبة سعد بن
عبادة في الأنصار

سمع الحاضرون مقالة سعد ثم أجابوه بأجمعهم : « وقتت في الرأي ، وأصببت في القول ، ولن نعدوما رأيت . نوليك هذا الأمر ؛ فإنك فينا مقتنع ، ولصالح المؤمنين رضاً » .

أفكان هذا الإجماع صريحاً قوياً صادراً عن عزيمة لا تهين ولا تكبو ؟ لو أنه كان كذلك لأسرع القوم إلى بيعة سعد بن عباد ، ولدعوا الناس إلى متابعتهم على بيعته . ولكن القوم ما لبثوا أن ترادوا الكلام بينهم قبل أن يُقبل أحد على بيعة سعد : قال قائل منهم : « فإن أبت مهاجرة قريش فقالوا : نحن المهاجرون ، وصحابة رسول الله الأولون ، ونحن عشيرته وأولياؤه ، فعلام تنازعونا هذا الأمر بعده ؟ » . وأنصت الحاضرون إلى هذا القول ، ورأوا فيه من الحق ما حسبه بعضهم لا يدفع . هنالك قالت طائفة منهم : « فإننا نقول إذن منا أميرٌ ومنكم أمير . ولن نرضى بدون هذا الأمر أبداً » .

ولم يخف على ابن عباد ما تنطوى عليه هذه المقالة من تردد يقعد بصاحبه دون غايته ؛ لذلك قال حين سمعها : « هذا أول الوهن » . ولعله إنما رآها أول الوهن أن رأى الذين يقولونها من بني الأوس . فما كان بنو الخزرج ليقولوا مثلها وهو رئيسهم الذي يرشحونه لولاية الأمر من بعد الرسول . والأوس والخزرج كانوا دائماً على خلاف بينهم ، منذ نزل أجدادهم الأولون المدينة قادمين من اليمن حين هجرة الأزدي إلى الشمال . فقد ألقى هؤلاء الأجداد اليهود بالمدينة فخضعوا لسلطانهم زمناً ، ثم ثاروا بهم وأنزلوهم عن مكان السلطان منهم . ومن يومئذ نشبت بين القبيلتين خصومة طالما ردت السلطان لليهود . ورأى الفريقان ما يجره ذلك عليهم من ضعف ، فهموا أن يولوا عليهم أحدهم عبد الله بن محمد من الخزرج ، بعد أن أفنت وقعة بُعث الكثيرين منهم ، وأعلت كلمة لإسرائيل بينهم . وإنهم لذلك إذ قدم منهم جماعة مكة حاجين ، فتعرض لهم النبي يدعوهم إلى الله ، وقال بعضهم لبعض : « والله إنه للنبي الذي تواعدكم به يهود ، فلا يسببقتكم إليه » . ثم أجابوا دعوته ، وأسلموا وقالوا له : « إنا تركنا قومنا - أي الأوس والخزرج - ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم . فمسي أن يجمعك الله بهم ؛ وإن يجمعهم عليك فلا رجل أعز منك » وعاد هؤلاء إلى المدينة ، فأنبهوا قومهم بما رأوا ، فكان ذلك مقدمة بيعة العقبة الكبرى ، ومقدمة هجرة الرسول إلى المدينة ، وبدء انتشار الإسلام فيها .

جمع الدين الجديد كلمة المؤمنين به ، ثم زادهم التفاهم حول النبي إخوان

ومودة . بذلك ضعف سلطان اليهود ضعفاً مهبطاً لجلالهم من بعد عن المدينة وعن بلاد العرب جميعاً . على أنه بقيت مع ذلك في نفوس الأوس والخزرج آثار من خصومتهم الأولى ، كانت تبدو كلما حركها من اليهود أو المنافقين من ادعى الإسلام باطلا ليفرق بين أهله . وذلك ما يدعو إلى الظن بأن سعد بن عبادة لم يقل حين نظر إلى القوم في السقيفة يستمعون إلى من يقول : منا أمير ومن قريش أمير : « هذا أول الوهن » إلا لأن أصحاب هذه المقالة كانوا من بني الأوس .

بينما كان الأنصار في سقيفة بني ساعدة يتداولون أمرهم بينهم يريدون أن ينفردوا بالسلطان على العرب ، كان عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وطائفة من كبار المسلمين ومن سوادهم يتحدثون بالمسجد عن وفاة الرسول ، وكان أبو بكر وعلي بن أبي طالب وأهل بيت النبي يحيطون بجمانه ويعدون العدة لتجهيزه ودفنه . وبدأ ابن الخطاب منذ أيقن بوفاة النبي يفكر فيما عسى أن يكون الأمر من بعده . ولم يدرك بخلافه أن الأنصار سبقوه إلى هذا التفكير ، أو أنهم يريدون أن يستبدوا بالأمر دون الناس . قال ابن سعد في الطبقات : « أتى عمرُ أبا عبيدة بن الجراح ، فقال : ابسط يدك فلا يبعك ، فأنت أمين هذه الأمة على لسان رسول الله . فقال أبو عبيدة لعمر : ما رأيت لك فتهمة ^(١) قبلها منذ أسلمت . أتبايعني وفيكم الصديق وثاني اثنين » وإنهم لفي هذا الحديث إذ جاءهم نبأ الأنصار واجتماعهم في سقيفة بني ساعدة . فأرسل عمر إلى أبي بكر في بيت عائشة أن اخرج إلينا ، فأجاب أبو بكر الرسول : « إني مشغول » . فرد عمر رسوله يقول لأبي بكر : « إنه قد حدث أمر لا بد لك من حضوره » .

حديث عمر
ابن الخطاب
وأبي
عبيدة
ابن الجراح
عن
الخلافة

وخرج أبو بكر إلى عمر وقد تولاه العجب ، أرى أمر يمكن أن يدعى إليه فيصرفه عن جهاز رسول الله ! قال عمر : « أما علمت أن الأنصار قد اجتمعت في سقيفة بني ساعدة يريدون أن يولوا هذا الأمر سعد بن عبادة ، وأحسنهم مقالة من يقول منا أمير ومن قريش أمير ! ! » ولم يتردد أبو بكر حين سمع ذلك

أبو بكر وعمر
وأبو عبيدة
ينصرون إلى
سقيفة بني ساعدة

(١) التهمة : السقطة والجهلة .

أن مضى مع عمر مسرعين إلى السقيفة ومعهما أبو عبيدة بن الجراح . وكيف يتردد والأمر أمر المسلمين ومصيرهم ، بل أمر هذا الدين الذي أوحى إلى محمد ومصيره ! إن حول جثمان الرسول أهله يقومون بما يجب لجهازه ودفنه ، فلينطلق مع صاحبيه إلى السقيفة ، فذلك واجب عليه لله ورسوله لا يستطيع غيره أن ينهض به . وهو لم يتخل يوماً عن أداء الواجب والنهوض بأجسام التبعات وإن اقتضاه ذلك بذل ماله ونفسه .

مضى ثلاثة الرجال لم يشتمهم أن لقيهم عاصم بن عدى وعويم بن ساعدة فقالا لهم : ارجعوا فإنه لا يكون ما تريدون . فلما قالوا : « يا معشر المهاجرين ، لا تأتوهم واقضوا أمركم » قال عمر : « والله لتأتينهم » .

اجتماع السقيفة
وعظيم خطره

وبلغ الثلاثة السقيفة والأنصار لا يزالون في حوارهم لم يبايعوا سعداً ولم يقطعوا في ولاية الأمر برأى . ودهش الأنصار حين رأوهم فأمسكوا عن القول ، وكأنما سقط في أيديهم . وسأل عمر بن الخطاب عن رجل مزمل بين ظهرانيهم من هو ، فأجابوا : هذا سعد بن عبادة به وجع . وجلس أبو بكر وصاحبه بين القوم وكل تمشى في نفسه هو اجس يسأل نفسه عم يسفر هذا الاجتماع ؟

والحق أنه كان اجتماعاً جليل الخطر في حياة الإسلام الناشئ . ولولا ما أبدى أبو بكر في هذا الاجتماع من قوة الحزم وصلابة الإرادة لأوشك هذا الدين الجديد أن يثور الخلاف عليه في موطنه كما ثار في مواطن أخرى من بلاد العرب ، وأن يثور وجثمان صاحب الرسالة ما يزال في بيته لم يثو في قبره .

أرأيت لو أن الأنصار أصرروا على أن يستبدوا بالأمر دون الناس استجابة لدعاء سعد بن عبادة ولم ترض قريش أن يكون لغيرها الأمر ، فأى مسرح للثورة كانت تصبح مدينة الرسول ! ولأية ثورة جائرة مسلحة وجيش أسامة في أحشائها فيه المهاجرون وفيه الأنصار وكلهم مدجج بسلاحه قد لبس درعه واتخذ للقتال عاتيه ! ! ولو أن المهاجرين الذين ذهبوا إلى السقيفة كانوا غير أبي بكر وعمر وأبي عبيدة ممن ليس لهم في نفوس المسلمين جميعاً ما لوزيري

رسول الله ولأمين الأمة من مكانة ، لشجر الخلاف بينهم وبين الأنصار ،
 وتحيف على جماعة المسلمين من الاختلاف وما يجر إليه ، ولكان لذلك أثره الذي
 لا يفكر اليوم فيه مؤرخ ، ولما وقف الأكثرون من اجتماع السقيفة عند رواية
 الحوادث وذكّر الخطب التي تبودلت وما تم على أثرها من بيعة أبي بكر . أما
 الذين يقدرّون الحوادث قدرها ، فيرون لهذا الاجتماع التاريخي من الأثر في
 حياة الإسلام ما كان لبيعة العقبة الكبرى ، وما كان لهجرة الرسول من مكة إلى
 المدينة ، ويرون فيما كان من أبي بكر وحسن تصرفه في الموقف عمل الرجل
 السياسي ، بل رجل الدولة البعيد مرى النظر ، والذي يقدر النتائج ويرتب
 للاحتيالات ، ويوجه كل جهده إلى الغرض الذي يريد أن يحقق به أعظم الخير
 ويتقى به كل ضرر أو أذى .

أبو بكر يبدأ الهجوم السلمي
 ألفنا في حياتنا الحاضرة عبارات يصور بها الساسة أحوالاً أو أعمالاً يحسبونها
 بدءاً لم يسبقهم إليه في التاريخ أحد . ومن مألوف ما نسمع في هذا الزمن
 عبارة « الهجوم السلمي » . وهذا الهجوم السلمي لم يكن مجهولاً في العصور
 الماضية . بل هذا الهجوم هو ما لجأ إليه أبو بكر وأتمه صاحبه في ذلك الاجتماع
 التاريخي الجليل الخطر .

لما اطمأن بالمهاجرين الثلاثة المجلس خرج الأنصار من صمتهم وزايلتهم
 دهشتهم ، ولم يُخفِ أشدهم حماسة حرصهم على أن يكون الأمر من بعد
 الرسول لهم . قال عمر : « وكنت قد زويت^(١) كلاماً أردت أن أقوم به فيهم ،
 فلما أن دفعت إليهم ذهب لأبتدئ المنطق ، فقال لي أبو بكر : رويداً
 حتى أتكلم ثم انطق بعد بما أحببت » . إنما خشى أبو بكر شدة عمر في
 القول وليس الموقف موقف شدة أو عنف بل موقف سياسة وحسن مدخل .
 نهض أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه وذكر رسول الله وما جاء به من رسالة
 التوحيد ثم قال :

« . . . عظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم ، فخص الله المهاجرين
 الأولين من قومه بتصديقه ، والإيمان به ، والمؤاساة له ، والصبر معه ، على شدة

خطبه الأولى
 في الأنصار

(١) زويت : جمعت . ويروى « زورت » .

أذى قومهم لهم ، وتكذيبهم لياهم ، وكلّ الناس مخالف لهم راي عليهم ، فلم يستوحشوا لقلّة عددهم ، وشسّف^(١) الناس لهم ، وإجماع قومهم عليهم . فهم أول من عبد الله في الأرض ، وآمن بالله وبالرسول ، وهم أولياؤه وعشيّته ، وأحقّ الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم .

« وأنتم يا معشر الأنصار ، من لا يُنكر فضلهم في الدين ، ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام ، رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله ، وجعل إليكم هجرته ، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه . فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم . فنحن الأمراء وأنتم الوزراء . لا تُفتاتون بمشورة ، ولا تُقضَى دونكم الأمور » .

نحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تفتاتون بمشورة ، ولا تقضى دونكم الأمور . ما أقرب هذا القول من رأي الأنصار الذين قالوا : منا أمير ومن المهاجرين أمير . وهذا القول أدخل في باب النظام وأدى إلى أن تسير الأمور سيرة صلاح وإصلاح . هذا حق . ولعل أبا بكر قصد إليه فكان قصده حسن السياسة وبعد النظر . ولعل الأوس الذين كانوا ينفسون على الخزرج قد استراحوا إليه . ولعل كثيرين من بنى الخزرج أنفسهم لم ينفروا منه . فهذا أبو بكر لم يرد للمهاجرين أن يستبدوا بالأمر دون الناس كما فعل سعد بن عبادة . بل جعل الأنصار وزراء فأشركهم في الأمر ولم يشرك غيرهم ، وإن كان من غيرهم في بعض أنحاء شبه الجزيرة من هم أكثر قوة وأعز نفراً . وهو إنما أشركهم على الأساس الذي جعل به الإمامة للمهاجرين : مقامهم في السبق إلى نصر الرسول وتأبيده .

لا يجرم إذن أن يسير الخبيخ إلى هذا الخرك ، فهو عادل كما قالوا . وأساسه الحق كل الحق .

رد الأنصار على
أبي بكر

ورأى الذين أخذت منهم الحماسة للأنصار مأخذها ما ترك كلام أبي بكر في نفوس أهل السقيفة ، وخشوا أن يفضّ إجماعهم الأول وأن ياصيروهم المهاجرون الأمر ويستأثروا بالسلطان دونهم ، هنالك قام أحدهم فقال : « أما بعد ، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام . وأنتم يا معشر المهاجرين (هجر)

منا وقد دَفَّتْ دافئةً من قومكم وإذا هم يريدون أن يختزلونا^(١) من أصلنا ويفصبونا الأمر» ولم يرض أبو بكر أن يذر مقامه بعد هذا الذي سمع ، فتوجه كرة أخرى للأَنْصار فقال : « أيها الناس ؟ نحن المهاجرون أول الناس إسلاماً ، وأكرمهم أحساباً ، وأوسطهم داراً ، وأحسنهم وجوهاً ، وأكثرهم ولادة في العرب ، وأمسهم رحماً برسول الله . أسلمنا قبلكم ، وقد منا في القرآن عليكم ، فقال تبارك وتعالى : (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ . وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ) ، فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار إخواننا في الدين ، وشركاؤنا في النوى ، وأنصارنا على العدو . أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ، وأنتم أجدر بالثناء من أهل الأرض جميعاً ؛ فأما العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش ، فمننا الأمراء ومنكم الوزراء . »

لن تعرف العرب
هذا الأمر إلا
لهذا الحى من
قريش

كرر أبو بكر هذه الكلمة الأخيرة التي تركت من الأثر في النفوس أول ما قيلت ما توجَّس غلاة الأنصار معه خيفة ، فقام الحباب بن المنذر ابن الجموح فقال :

« يا معشر الأنصار ! املكوا عليكم أمركم ، فإن الناس في فيثكم ، ولن يجترئ مجترئ على خلافكم ، ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم . أنتم أهل العز والثروة ، وأولو العدد والمنعة والتجربة ، وذوو البأس والنجدة ، وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون . فلا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم ، وينتقص عليكم أمركم . أبى هؤلاء إلا ما سمعتم . فنا أمير ومنكم أمير . »

تخرج الموقف
بين المهاجرين
والأنصار

لم يكد الحباب يفرغ من حديثه حتى نهض عمر بن الخطاب ، وكان قد أمسك قبل ذلك عن الكلام طوعاً لأبي بكر ، فقال : « هيهات لا يجتمع اثنان في قترن . والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونسيبها من غيركم ، ولكن العرب لا تتنح أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم وولى أمورهم منهم ، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين . من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته ، إلا مدلٍ بباطل ، أو متجانف لإثم ، أو متورط في هلكة ! » .

(١) أن يختزلونا : أن يقتطعونا ويذهبوا بنا منفردين .

وأجاب الحباب عمر : « يا معشر الأنصار ! املكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر . فإن أبوا عليكم ما سألتموه فأجلوهم عن هذه البلاد، وتولوا عليهم هذه الأمور . فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم ، فإنه بأسيا فكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين . أنا جُدُّ يَلُها المحكك وعدُّ يَفها المرُجَّب ! أما والله إن شتمت لنعيندنها جَدَّة ! » .

قال عمر وقد سمع لهذا النذير : « إذن يقتلك الله » وأجاب الحباب : « بل إياك يقتل » .

هاتان العبارتان الأخيرتان نذير شر . ولو أن الحباب كانت في جانبه كثرة الأنصار لكان أيسر ما ينشأ عنها أن يضحجوا وأن يسرعوا إلى نصرته بالإقبال على مبايعة سعد بن عباد ، وليفعل المهاجرون بعد ذلك ما يشاءون . ولعل طائفة منهم قد تغامزت بذلك أو بشيء يشبهه يكون جواباً لهذا الحوار العنيف بين عمر والحباب . بل لقد ذكر الطبرى أن الحباب انتضى سيفه وهو يتكلم ، فضرب عمر يده فسقط السيف ، فأخذ عمر ثم وثب على سعد بن عباد . على أن أبا عبيدة بن الجراح تدخل في الأمر وكان قد لزم الصمت إلى تلك اللحظة ، فقال موجهاً حديثه إلى أهل المدينة : « يا معشر الأنصار ! كنتم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من بدّل وغير » .

تدخل أبو عبيدة لتسكين الحدة

مقالة بشير بن النعمان الخزرجي

وانتهز بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير من زعماء الخزرج هذه الكامة الحكيمة من أبي عبيدة فقام بين قومه وقال :

« إنا والله وإن كنا أولى فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في هذا الدين ، ما أردنا به إلا رضا ربنا ، وطاعة نبينا ، والكدح لأنفسنا . فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبتغي من الدنيا عَرَصاً ؛ فإن الله وليّ النعمة علينا بذلك . ألا إن محمداً صلى الله عليه وسلم من قريش وقومه أحق به وأولى . وإيمُ الله لا يراني الله أنازعهم في هذا الأمر أبداً . فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم » .

وأجال أبو بكر بصره في الأنصار ليرى ما تركت مقالة بشير من الأثر

فيهم ، فألقى الأوس وكأنما يهمس بعضهم في أذن بعض وألقى بنى الخزرج يبدو على الكثير منهم أن قول بشير أقنعهم ، فأيقن أن الأمر قد استوى وأن اللحظة لحظة الفصل فلا ينبغي أن تترك . وإذا كان جالساً بين عمر وأبي عبيدة فقد أخذ بيد كل منهما ، وقال يدعو الأنصار إلى الجماعة ويحذرهم الفرقة ثم أردف : « هذا عمر وهذا أبو عبيدة ، فأيهما شتم فبايعوا » .

هنالك كثر اللفظ وخيف الاختلاف . أبايعون عمر وهو على ما هو عليه من شدة ، وهو مع ذلك وزير النبي وأبو حفصة أم المؤمنين ! أم يبايعون أبا عبيدة ولم يكن له إلى يومئذ في المسلمين ما كان لعمر من كلمة ومقام ! لكن عمر لم يدع لهذا الخلاف أن تثبت شجرته ؛ فقد نادى بصوته الجهورى : « ابسط يدك يا أبا بكر » . وبسط أبو بكر يده فبايعه عمر وهو يقول : « ألم يأمر النبي بأن تصلى أنت يا أبا بكر بالمسلمين ! فأنت خليفة الله . فنحن نبايعك لتبايع خير من أحب رسول الله منا جميعاً » .

عمر وأبو عبيدة
يبايعان أبا بكر

وبايع أبو عبيدة وهو يقول : « إنك أفضل المهاجرين ، وثاني اثنين إذ هما في الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة أفضل دين المسلمين . فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك ! » وإن عمر وأبا عبيدة يبايعان أبا بكر إذ أسرع بشير بن سعد فبايعه .

بشير بن سعد
يبايع أبا بكر

عند ذلك ناداه الحُبَاب بن المنذر : يا بشير بن سعد ، عققك ، ما أحوجك إلى ما صنعت ! أنفست الإمارة على ابن عمك ! (يقصد ابن عبادة) .

قال بشير : لا والله ! ولكني كرهت أن أنازع قومًا حقًا جعله الله لهم .

والتفت أسيد بن حضير زعيم الأوس إلى قومه وهم ينظرون إلى ما صنع بشير بن سعد وقال لهم : « والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيباً أبداً . قوموا فبايعوا أبا بكر » . وقام الأوس فبايعوا أبا بكر . ثم قام من الخزرج من اطمأنوا إلى كلام بشير يبايعون مسرعين ، حتى ضاق بهم المكان من السقيفة . وكاد الناس في تكاثرهم على البيعة يطشون سعد بن عبادة . فقال ناس من أصحابه :

الأوس والخزرج
يبايعون بيعة
السقيفة

اتقوا سعداً لا تطئوه . قال عمر : اقتلوه قتله الله ! ووجه إلى سعد كلاماً عنيفاً . فقال نه أبو بكر : « مهلاً يا عمر ! الرفق ها هنا أبلغ » . وحمل سعداً أصحابه فأدخروه داره حيث بقي أياماً ثم قيل له : « أقبل فبايع فقد بايع الناس وبايع قومك » . وأبى سعد أن يبايع وقال : « أما والله حتى أرميكم بما في كنانتي من نَسَبٍ ، وأخضب سنان رجلي ، وأضربكم بسيفي ما ملكته يدي ، وأقاتلكم بأهل بيتي ومن أطاعني من قومي ، فلا أفعل » . فلما اتصل هذا الحديث بأبي بكر قال له عمر : « لا تدعه حتى يبايع » . وخالف بشير رأى عمر فقال : « إنه قد ليج وأبى ، وليس بمبايعكم حتى يقتل ، وليس بمقتول حتى يقتل ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته ، فاتركوه ؛ فليس تركه بضاركم ، إنما هو رجل واحد » .

سعد بن عبادة
يأبى أن يبايع

وسمع أبو بكر إلى رأى بشير وأجازه ، وتركوا سعداً ، فكان لا يصلّي بصلاتهم ، ويحج ولا يفيض بإفاضتهم . وأقام على ذلك حتى مات أبو بكر :

تمت بيعة أبي بكر بالسقيفة وجمان النبي لا يزال في بيته من حوله أهله :
على بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب ومن اشترك معهم في جهازه ، وعلى مقربة منهم في المسجد طائفة من المهاجرين . وتمت هذه البيعة كما رأيت في أحوال جمعت بعض الرواة ينسب إلى عمر بن الخطاب أنه قال : إنها كانت فلتة . فأما غير هؤلاء الرواة فيرى أن أبا بكر وعمر وأبا عبيدة ذهبوا على اتفاق بينهم أن يكون الأمر لأبي بكر . وأما هاتين الروايتين فالذي لا مرية فيه أن ما تم في السقيفة قد وفق الإسلام الناشئ فتنة ليس يعلم إلا الله ما كان يحدث فيها ، وقد مهد للقضاء على كل خلاف بين المسلمين ، كما مهد للسياسة التي رسمها الرسول أن تنجح النجاح الذي مهد للإمبراطورية الإسلامية من بعد ، والذي أذاع دين الله بفضل منه جل شأنه في مشارق الأرض ومغاربها .

أثر بيعة السقيفة

ومن يوم السقيفة لم يبق للأنصار في ولاية أمر المسلمين مطمع أو مأرب . فقد كانت بيعة عمر بن الخطاب ، ثم بيعة عثمان بن عفان ، ثم كان الخلاف بين عليّ ومعاوية ، ولم يكن للأنصار من ذلك كله إلا نصيب سائر العرب .

وكأنما آمنوا بما قال أبو بكر من أن العرب لن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش . بل كفاهم من بعد ذلك أن عاشوا في كنف المهاجرين مطمئنين إلى وصية رسول الله في مرضه الأخير حين قال : « يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيراً ، فإن الناس يزيدون والأنصار على هيتئها لا تزيد ، وإنهم كانوا عيبتى التى أويت إليها ، فأحسنوا إلى محسنهم ، وتجاوزوا عن سيئهم » .

• • •

لم يلبث أبو بكر وسائر من كانوا بالسقيفة حين تمت البيعة أن عادوا إلى المسجد والوقت مساءً والمسلمون مع ذلك يتلقفون الأنباء من بيت عائشة عن جهاز الرسول . وفي الغد من بعد ذلك اليوم جلس أبو بكر في المسجد ، فقام عمر يعتذر عما تحدث به إلى المسلمين بالأمس من أن النبي لم يمت فقال : « إني قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت مما وجدت في كتاب الله ، ولا كانت عهداً عهدته إلى رسول الله ، ولكنى قد كنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا ويبقى ليكون آخرنا . وإن الله قد أبى فيكم كتابه الذى هدى به رسوله . فإن اعتصمتم به هداكم الله كما هداه به . وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وثانى اثنين إذ هما في الغار ، فقوموا فبايعوا » . فبايع الناس جميعاً بيعة العامة بعد بيعة الخاصة بالسقيفة .

بيعة العامة

وقام أبو بكر بعد أن تمت البيعة وألقى في الناس خطاباً كان أول حديث له في خلافته ، ثم كان آية من آيات الحكمة وفصل الخطاب . قال رضى الله عنه بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أما بعد ، أيها الناس ! إني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى . الصدق أمانة ، والكذب خيانة . والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله . والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آتخذ الحق منه إن شاء الله . لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله . فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم . قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله » .

أول خطاب
للخليفة الأول

هل تخلف عن
بيعة أبي بكر أحد
من المهاجرين؟

أفكانت بيعة العامة هذه بيعة إجماع من المسلمين لم يتخلف عنها أحد ما تخلف سعد بن عباد عن بيعة الخاصة بالسقيفة؟ المشهور أن طائفة من كبار المهاجرين تخلفوا عنها، وأن علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب من بني هاشم كانا من المتخلفين. ذكر اليعقوبي أنه قد «تخلف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين والأنصار ومالوا مع علي بن أبي طالب، منهم العباس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس، والزيبر بن العوام بن العاص، ونخالد بن سعيد، والمقداد بن عمرو، وسامان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، والبراء بن عازب، وأبي بن كعب» وأن أبا بكر شاور عمر بن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح والمغيرة بن شعبة في أمرهم، فأشاروا عليه أن يأتي العباس بن عبد المطلب وأن يجعل له في الأمر نصيباً يكون له ولعقبه من بعده، فيقع الخلاف بذلك بينه وبين ابن أخيه علي بن أبي طالب، فيكون ذلك حجة لأبي بكر وأصحابه على علي. وقد فعل أبو بكر ما أشاروا به، وقال للعباس في حديث طويل: «ولقد جئناك ونحن نريد أن يكون لك في هذا الأمر نصيب يكون لك ويكون لمن بعدك من عقبك إذ كنت عم رسول الله». ورد العباس هذا العرض بعد حديث أورده اليعقوبي كذلك: «إن كان هذا الأمر لنا فلا نرضى ببعضه دون بعض».

المتخلفون في
رواية اليعقوبي

رواية حواريين
أبي بكر والعباس
ابن عبد المطلب

وفي رواية ذكرها اليعقوبي، وذكرها غيره من المؤرخين، ولا يزال لها الشهرة، أن جماعة من المهاجرين والأنصار اجتمعوا مع علي بن أبي طالب في دار فاطمة بنت رسول الله يدعون إلى مبايعته، وبينهم خالد بن سعيد يقول: «فوالله ما في الناس أحد أولى بمقام محمد منك». وبلغ أبا بكر وعمر اجتماعهم بدار فاطمة، فأتيا في جماعة حتى هجموا الدار. وخرج علي ومعه السيف، فلقبه عمر فصارع فصرعه وكسر سيفه ودخلوا الدار. فخرجت فاطمة وقالت: «والله لتخرجن أو لأكشفن شعري ولأعجنن إلى الله»، فخرجوا وخرج من كان في الدار، وأقام القوم أياماً ثم جعل الواحد بعد الواحد يبايع، ولم يبايع علي إلا بعد وفاة فاطمة، أي بعد ستة أشهر، وقيل في رواية إنه بايع بعد أربعين يوماً. ويروي أن عمر بن الخطاب جمع الخطاب حول دار فاطمة وأراد

رواية الاجتماع
في دار فاطمة
بنت الرسول

أن يُحرقها أو يبايع عليّ أبا بكر .

وأشهر الروايات في تخلف عليّ وبنى هاشم وأكثرها ذبوعاً ما أورده ابن قتيبة في «الإمامة والسياسة» وما شاكله من روايات من عاصره أو تأخر عنه ، وهي تجرى بأن عمر بن الخطاب ذهب في عصابة إلى بنى هاشم بعد أن تمت البيعة لأبي بكر ، وطلب إليهم أن يخرجوا فيبايعوا كما بايع الناس ، وكان بنو هاشم في بيت عليّ . وقد أبوا وأبى من كان معهم أن يجيبوا دعوة عمر ، بل خرج الزبير بن العوام إلى عمر وأصحابه بالسيف . فقال عمر لأصحابه : عليكم بالرجل فخذوه ، فأخذوا السيف من يده ، فانطلق فبايع . وقيل لعليّ بن أبي طالب : بايع أبا بكر ، فقال : « لا أبايعكم وأنا أحقّ بهذا الأمر منكم وأنتم أولى بالبيعة لي . أخذتم هذا الأمر من الأنصار واحتججتم عليه بالقرابة من النبي صلى الله عليه وسلم ، وتأخذونه منا أهل البيت غصباً . أستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لِمَا كان محمد منكم : فأعطوكم المقادة وسلّموا إليكم الإمارة ! فإذا نحن أحتج عليكم بمثل ما احتججتم على الأنصار . نحن أولى برسول الله حياً وميتاً ، فأنصفونا إن كنتم تؤمنون ، وإلا فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون » .

أشهر الروايات
في تخلف عليّ
و بنى هاشم في
البيعة

قال عمر : « إنك لست متروكاً حتى تبايع ! »

وأجاب عليّ في حرارة وقوة : « احلب حبلاً لك شطره ، وشد له اليوم يردده عليك غداً . والله يا عمر لا أقبل قولك ولا أبايعه » .

وختم أبو بكر أن يبلغ الحواريين بهما إلى العنف ، فتدخل بين الرجلين وقال : « فإن لم تبايع فلا أكرهك » .

وتوجه أبو عبيدة بن الجراح إلى عليّ متلظفاً فقال : « يا ابن عم ، إنك حديث السن ، وهؤلاء مشيخة قومك ، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور . ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك وأشد احتمالاً واستطلاعاً ، فسلم لأبي بكر هذا الأمر ؛ فإنك إن تعش ويطل بك بقاء فأنت لهذا الأمر خليق وحقيق في فضلك ودينك وعلمك وفهمك وسابقتك ونسبك وصمرك » .

هنا ثار نائر على وقال : « الله الله يا معشر المهاجرين ! لا تُخرجوا سلطان محمد في العرب من داره وقعر بيته إلى دوركم وقعر بيوتكم ، وتدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه . فوالله ، يا معشر المهاجرين ، لننحن أحق الناس به لأننا أهل البيت . ونحن أحق بهذا الأمر منكم ما كان فينا القارئ لكتاب الله ، الفقيه في دين الله ، العالم بسنن رسول الله ، المضطلع بأمر الرعية ، الدافع عنهم الأمور السيئة ، القاسم بينهم بالسوية . والله إنه لفينا ، فلا تتبّعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله فتزدادوا من الحق بعدا » .

وكان بشير بن سعد حاضراً هذا القول فيما يروى رواته ، فلما سمعه قال : « لو كان هذا الكلام سمعته الأنصار منك يا عليّ قبل بيعتها لأبى بكر ما اختلفت عليك » .

خرج عليّ مُمَحْنَقاً غاضباً ، فذهب إلى فاطمة فخرج بها من دارها فحملها على دابة ليلاً فأخذ يطوف بها مجالس الأنصار تسألهم النصرة ، فكانوا يقولون : « يا بنت رسول الله ، قد مضت بيعتنا لهذا الرجل . ولو أن زرجك وابن عمك سبق إلينا قبل أبي بكر ما عدلنا به » .

ويجيبهم عليّ وقد زاده هذا الجواب غضباً :

« أفكنت أزع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته لم أدفنه وأخرج أنازع الناس سلطانه ! » . وترد فاطمة : « ما صنع أبو الحسن إلا ما كان ينبغي له . ولقد صنعوا ما الله حسيبهم عليه وطالبهم » .

إنكار هذه
الرواية والقول
بأن أبا بكر
بويح بإجماع

هذا هو المشهور عن موقف عليّ بن أبي طالب وأصحابه من بيعة أبي بكر . وينكر بعض المؤرخين هذا المشهور من تخلف بني هاشم أو غيرهم من المهاجرين إنكاراً صريحاً ! ويذكرون أن أبا بكر بويح بعد السقيفة بإجماع لم يتوقعه أحد . روى الطبري حديثاً بإسناده أن سعيد بن زيد سئل : أشهدت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم . قيل : فتي بويح أبو بكر ؟ قال : يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة . قيل . أخالف عليه أحد ؟ قال : لا ، إلا مرتد أومن قد كاد أن يرتد لولا أن الله عز وجل تنقذهم من الأنصار . قيل : فهل قعد أحد من المهاجرين ؟ قال : لا ، تتابع المهاجرون على بيعته من غير أن يدعوهم .
الصدّيق أبو بكر

وفي رواية أن عليّ بن أبي طالب كان في بيته إذ جاءه من أنبأه أن أبا بكر قد جلس للبيعة ، فخرج في قميص له ما عليه إزار ولا رداء عَجَلًا كراهية أن يبطن عنها حتى بايعه ، ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه فأناه فتجمله ولزم مجلسه .

وتجرى بعض الروايات في أمر عليّ وبيعته مجرى وسطًا بين ما قدمنا من ذلك ما قيل من أن أبا بكر صعد المنبر عقب البيعة فنظر في وجوه القوم فلم ير الزبير ، فدعا به فجاء فقال له : ابن عمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريّه ، أردت أن تشق عصا المسلمين ! فقال : لا تريب يا خليفة رسول الله فقام فبايعه . ثم نظر في وجوه القوم فلم ير عليًّا ، فدعا به فجاء فقال له : ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختته على ابنته ، أردت أن تشق عصا المسلمين فقال : لا تريب يا خليفة رسول الله فقام فبايعه .

رواية وسط بين الروايتين

وتذهب طائفة من الروايات إلى أن بنى أمية هم الذين أرادوا أن يثيروا الثائرة بين بنى هاشم وأبي بكر . قيل لما اجتمع الناس على بيعة أبي بكر أقبل أبو سفيان وهو يقول : والله إنى لأرى عجاجة لا يطفئها إلا دم . يا آل عبد مناف فيم أبو بكر من أموركم ؟ ! أين المستضعفان ! أين الأذلان عليّ والعباس ! وأنشد يتمثل :

ما يقال عن موقف بنى أمية

ولا يقيم على ضمير يراد به إلا الأذلان عسير الحى والوتيد
هذا على الخسف محبوس برمته وذا يشح فلا يبكي له أحد

على أن الروايات التي ذكرت هذا الحديث لأبي سفيان تكاد تُجمع على أن عليًّا أبي أن يتابعه ، وأنه قال له : « إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة . وإنك والله طالما بغيت الإسلام شرًّا » ، أو قال له : « يا أبا سفيان ، طالما عادت الإسلام وأهله فلم تضره بذلك شيئًا . إنى وجدت أبا بكر لها أهلا » .

والذين ينفون تخلف عليّ عن البيعة يذهبون إلى أن روايات تخلفه قد وضعت من بعد ، ويرجحون أنها وضعت في عهد العباسيين لغايات سياسية ، ويقولون إنها استندت إلى واقعة متفق على صحتها ، ولكنها لا تتصل بالبيعة في

مطالبة العباس وفاطمة بميراثهما من النبي

قليل ولا كثير . هذه الواقعة أن فاطمة ابنة النبي والعباس عمّة أبا بكر بعد استخلافه يطلبان ميراثهما من رسول الله في أرض فندك وفي سهمه من خيبر . فقال لهما أبو بكر : « أما إنى سمعت رسول الله يقول : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة . إنما يأكل أهل محمد في هذا المال . وإنى والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته » . فغضبت فاطمة لذلك وهجرت أبا بكر فلم تكلمه في ذلك حتى ماتت ، فدفنها على ليلا ولم يؤذن بها أبا بكر . وقد مكثت فاطمة ستة أشهر بعد وفاة أبيها . وكان على يغضب أبا بكر غضباً لها . فلما ماتت مال إلى مصالحته وصالحه .

هذا حديث فاطمة وعليّ ومقاطعتهما أبا بكر بعد بيعته . أما ما يضاف إلى هذا الحديث من أن عليّاً امتنع من البيعة إلى أن ماتت فاطمة ، وأن أبا بكر ذهب بعد ذلك إليه في منزله فألفاه في بيت بني هاشم ، وأن عليّاً قام حينذاك وقال : إنه لم يمنعنا من أن نبايعك إلا أنا كنا نرى لنا في هذا الأمر حقاً فاستبددتم به علينا ، وأن أبا بكر ذكر في جوابه : « والله ما ألوت في هذه الأموال التي كانت بيني وبينكم غير الخير » — أما ما يضاف من ذلك كله فيردّه من ينفون تخلف عليّ عن البيعة بأن الحديث لم يتخط هذه الأموال ، وأن فاطمة والعباس ما كانا ليطالبا أبا بكر بها قبل أن يبايعه المسلمون جميعاً بالخلافة ، لأنه لم يكن له قبل ذلك في أمرها رأى .

يرجح أكثر الذين ينفون التخلف عن البيعة أن روايات هذا التخلف وضعت في عهد العباسيين لغايات سياسية ؛ أما سائرهم فيرجحون أنها وضعت قبل ذلك ، ومنذ اختلف بنو هاشم وبنو أمية على الأمر لبأن حروب عليّ ومعاوية .

وهؤلاء يقولون إن امتداد الفتح إلى العراق وفارس أدّى بجماعة من الفرس لابتداع هذه الأقاويل . وقد استجمعت هذه الجماعة من الفرس بعد انتصار الأمويين وأقامت في استجمامها تنحين الفرص حتى تهيأت لأبي مسلم الخراساني ، فكان من أمره وأمر الباسيين ما كان .

فأما الذين يقولون بتخلف عليّ وبنو هاشم عن البيعة أربعين يوماً أو ستة

حجة القائلين بتخلف عليّ وبينه عن البيعة أشهر ، وقولهم هو المشهور كما قدّمنا ، فيستندون إلى ما سبق من الروايات ، وإلى أن عليّاً والذين تخلفوا معه لم يشتركوا في جيش أسامة ، مع ما كان لعلّ من شجاعة وبأس في القتال اشتهر بهما في غزوات النبي واشتهر بهما من بعد في جميع أدوار حياته . وهم يردّون قول الذين ينفون التخلف عن البيعة بأن حجة المهاجرين على الأنصار في ولاية الأمر كانت أنهم أدنى صلة بالنبي ، وأن العرب لا تعرف إلا قريشاً لأنهم سدنة الكعبة والذين شخص إليهم أبصار الناس جميعاً من أهل شبه الجزيرة . وهذه الحجّة هي بذاتها سند بنى هاشم في التقديم على غيرهم لخلافة رسول الله ، فلا غرو أن يستمسكوا بها وأن يؤدي ذلك إلى تخلفهم عن بيعة أبي بكر . وذلك ما فعل عليّ ، وتلك كانت حجته وحجّة أصحابه . فإذا هم رضوا البيعة من بعد فإنما فعلوا حتى لا تكون فتنة تفسد لإجماع المسلمين ، وبخاصة بعد أن ظهرت في العرب الردة ، وبعد أن انتقض العرب على سلطان المدينة انتقاضاً أوّشك أن يهدد انتشار الدين الذي جاء به محمد من عند الله .

لم يثر أحد بخلافة أبي بكر على رغم هذا الخلاف بين الرواة في أمر البيعة واشتراك بنى هاشم وسائر المهاجرين فيها أو تخلف جماعة منهم عنها ، فالاتفاق تام على أن أبا بكر ولي الأمر بعد الرسول غير منازع منذ اليوم الأول . ولم يذكر أحد من القائلين بالتخلف عن بيعته أن واحداً من بنى هاشم أو غيرهم حاول أن يثير ثائرة مسلّحة ، أو همّ بمناهضة الخليفة الأول . . . أفكان ذلك لمكانة أبي بكر من رسول الله ، حتى قال : لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، أم كان لصحبته رسول الله في الهجرة وليماً تحلّى به من فضائل وما كان له في نصر الرسول من مواقف ، أم كان لأن رسول الله أنابه عنه في الصلاة أثناء مرضه الأخير ؟

أيّاً كان السبب الذي دعا المسلمين لبيعة أبي بكر بالخلافة يوم وفاة النبي ، فالثابت أنه لم يناهضه أحد ولم ينضم إلى من تخلف عن بيعته أحد . وذلك ينهض دليلاً على أن المسلمين الأولين تصوروا الخلافة بغير ما تصوروا خلتفهم من بعد منذ الدولة الأموية ، وأنهم كانوا أدنى في تصوروا إلى معاني الحياة العربية البحتة القريبة منهم ، والتي كانت معروفة في أنحاء شبه الجزيرة قبل مبعث

النبي عليه السلام . فلما اتسعت رقعة الفتح الإسلامي واختلط العرب بغيرهم من أهل الأمم التي فتحوا ، تغير تصور المسلمين لفكرة الخلافة تبعاً لهذا الاختلاط وهذه السعة في المملكة الإسلامية .

الخلافة في
المصور العربي

تصور المسلمون الخلافة تصوراً عربياً بحتاً . فالمتفق عليه أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يُوص بالخلافة لأحد . وما حدث يوم الوفاة من تنازع الأنصار والمهاجرين في سقيفة بني ساعدة ، وما لعله حدث من خلاف بين بني هاشم وسائر المهاجرين بعد بيعة العامة ، لا يذر محلاً للشبهة في أن أهل المدينة اجتهدوا في أمر الخلافة عند اختيار الخليفة الأول ، وأنه لم يكن لذلك سند في كتاب ولا سنة ؛ فاختار المقيمون بالمدينة من رأوه أصلح المسلمين لتولى أمورهم . ولو أن الأمر امتد إلى ما وراء المدينة من قبائل العرب لكان الشأن غير ما كان ، ولما كانت بيعة أبي بكر فلتة موفقة ، على حد تعبير عمر بن الخطاب .

ولم تكن السنة التي اتبعت في اختيار أبي بكر هي التي اتبعت في اختيار الخليفين من بعده : عمر وعثمان . فقد أوصى أبو بكر قبل وفاته باختيار عمر ابن الخطاب ، ثم جعل عمر الخلافة من بعده في ستة ذكركم بأسمائهم وترك لهم أمر اختيار أحدهم . فلما كان مقتل عثمان وما حدث على أثره من خلاف بين علي ومعاوية ، استتب الأمر للأمويين يتوارثه الأبناء عن الآباء . أما وتلك رواية الحوادث فلا محل للقول بأن لولاية الأمر في الإسلام نظاماً مقررأ ، وإنما هو اجتهاد أملمته الأحداث في أحوال الجماعة الإسلامية المتغيرة وألمته على صور مختلفة تلائم تغير هذه الأحوال .

نظام الحكم
في الإسلام

وكان النظام الذي سار عليه أبو بكر عربياً بحتاً كذلك . وكان لاتصاله الزمى الوثيق بعهد النبي ، ولاتصال الصديق نفسه بالرسول وتأثره به على النحو الذي سبق تصويره ، أثر فيه لم يلبث أن تغير من بعد بحكم الأحوال وبحكم امتداد الفتح الإسلامي . وقد ظل هذا التغير في نظام الحكم يجارى البيئة التي يقوم فيها ، حتى لم يكن ثمة وجه للشبه بين العهد العباسي في أوج مجده ، وعهد الخليفة الأول أبي بكر ولا بينه وبين عهد عمر وعثمان وعلي .

وعهد أبي بكر يكاد يكون فريداً في نوعه ؛ فهو الاتصال الطبيعي لعهد

الرسول في السياسة الدينية ، وفي السياسة الزمنية . صحيح أن الدين كان قد كمل ، ولم يبق لأحد أن يغير فيه أو ينسخ منه . لكن العرب ما لبثت حين مات النبي أن فكّرت في الردة ، وأن ارتد الكثير من قبائلها ؛ فلم يكن لأبي بكر بدٌّ من أن يضع لتلافى هذا الأمر الخطير خطةً ينفذها . وكان النبي قد بدأ مع الدول التي تجاوره سياسة تتصل بدعوته ؛ فلم يكن لأبي بكر مفرٌّ من متابعتها .

كيف فعل في هذه وفي تلك ؟ ذلك ما سنفصله من بعدُ .